أيها المصرى من أنت ؟ أنا أى شئ إلا ما يتصورون

السؤال فى خاطرى منذ بدأت أدرس التاريخ . ولكن الإجابة عليه خافية فى أطواء عشرة آلاف سنة أو تزيد . لأن المصرى الذى تراه . وتحسب أنه إنسان بسيط طيب القلب « قلبه على لسانه » كما نقول . ويرضى بالقليل . ويأخذ الأمور كما تأتى . ويترك الظروف تحل له مشاكله . هذا الإنسان لا يمكن أن يكون كذلك . ولو أنه كذلك لباد من الوف السنين . لأن صراع البقاء أو تصاريف الدهور بين شد وجذب . وحربا طويلة معلنة أبد الدهر على شعب يسكن بلدا هو قلب الدنيا ومعبر الأمم ومطمع الناس أجمعين . كل هذه كإنت جديرة بأن تعفى على آثار هذا المصرى الذى نصفه بهذا الوصف . من عشرات القرون .

د . حسين مؤنس

فاذا كان المصرى قد ثبت مكانه . وظل فى موقعه محتفظا بشخصيته وجدوده وفقه التى وضعها له أجداده من الوف السنين . واذا كان قد ثبت وجوده ومكانه فى كل عصر وأوان رغم ما تعرض له من أخطار وعدوان . فلابد أن فيه خصالا أخرى غير ما يبدو للناظر العابر . لابد أن فيه عناصر من القوة والحيوية مكنت له من هذا الصمود . فى حين تساقطت من حوله فى موكب التاريخ أمم اضخم واقوى فى الظاهر . عصفت بها تصاريف الزمان . وتساقطت أشلاؤها كأنها أوراق شجر أذرت به رياح الخريف . وداسته الأقدام وأكلته الأرض وعفى عليه الزمان .

وهذا هو الذى يقوله التاريخ . فاما أن يكون هذا التاريخ كاذبا كله . واما أن يكون المصرى شيئا آخر غير الذى نراه ونحسب اننا نعرفه

فاما أن يكون التاريخ كاذبا كله غير معقول . لأنه مسطور فى الف كتاب وكتاب . وتحقق مرات بعد مرات

فلم يبق الا أن المصرى فى حقيقته إنسان غير الذى نراه ونحسب اننا عهدنا الى صميمه وعرفناه

وذلك هو الحق فى أمر المصرى .

إن له أسرارا من القوة والقدرة على مقاومة الوجود قد لا يفطن اليها هو نفسه . لأنها لا يظهر إلا فى أوقات الشدة والأزمات ومطالب المواقف على مدى القرون

ونحن اليوم نبنى ونعمل . ونضع الخطط والسياسات لبلادنا إلى سنة الف وما بعد سنة الف

ونحن هذا حريون ونحن اليوم فى عنفوان الشباب . أن نطمئن على مصير ما نبنى ونشيد . وأن نعرف إن كان هذا المصرى - الذى هو نحن - أهلا للبناء الذى نبنيه والأمل الذى نرتجيه

لابد لنا من وقفة نسأل فيها . أيها المصرى . من أنت ؟

أيها المصرى من أنت؟ أنا أى شئ إلا ما يتصورون

لقد ظن كبير مؤرخى الحضارات فى عصرنا وهو أرنولد توينبى أنه وصل إلى سر بقاء المصريين واستطاعتهم مقاومة العصور وهوضهم واستعادتهم قوتهم مرة بعد مرة على مدى العصور. عندما قال فى دراسته المستفيضة للتاريخ.. إن المصرى وتجربته فى الحياة، أى حضارته، تدخل فى زمرة ما سماه بالحضارات المنحجرة تعبيرات انجليزية ولم يضعها ضمن الحضارة البائدة ولا الحضارات الموقوفة.

والحضارة المنحجرة عنده هى التى تجمد على حالها بعد أن تستنفد قواها فى فترة من فترات النهوض. ثم تنطوى على نفسها عندما يدركها إعياء كما تنطوى على نفسها الحيوانات نائمة الشتاء. فتسكن فى مأمن، ويبطؤ تنفسها ونبضها. وتظل على هذه الحال حتى يجىء الربيع ويدفأ الجو. فتفيق من نومها الطويل. ويعود نبضها وتنفسها إلى حاله فى الحركة والنشاط. وتخرج إلى الحياة نشيطة مستبشرة تجرى وتمرح. وتلتهم الطعام كأنها ولدت من جديد.

ومن أمثلة الحضارات المنحجرة عنده حضارتا مصر والصين. فإن كليتهما ولدت منذ العصر السحيق، وعاشت القرون المتطاولة، نامت وصحت مرة بعد أخرى، وفى كل يقظة تسترد عافيتها وتأتى بما يبهر الألباب.

ومن أمثلة الحضارات البائدة عنده حضارات الحيثيين والشيين والمغول، وكلها استنفدت حيويتها وماتت، وفى تاريخنا نحن نذكر عادا وثمود وأهل الرس وأصحاب الأيكة والمؤتفكات، وهذه الأخيرة بادت وغبرت حتى لم يبق فى أذهان الناس منها إلا أساطير الأولين.

ومن أمثلة الحضارات الموقوفة حضارات البدو والاسكيمو والبولينيزيين أهل جزائر المحيط الهادى. فكل من هذه حضارة كاملة تلق بمطالب أصحابها، ولكنها تصل جدا لا تتعداه، لأن ظروف حياتها لا تأذن بأكثر مما وصلت إليه. هؤلاء الأقوام يعيشون فى بيئات قاسية تستنفد قوى أهلها، ففيما يتصل بالبولينيزيين مثلا نجد أن صراع البحر وجرأتهم على عبور المحيط الهادى من نواحى استراليا إلى جزائر هاواى، هذا الصراع بسفن صغيرة مع محيط متلاطم الأمواج لم يبق فى كيانها جهدا تجوده.

ومن الحضارات الموقوفة حضارات الأنكا فى أمريكا الجنوبية وحاليا فى المكسيك. فهذه أوقفت وهى فى الطريق بالغزو الأسبانى البدوى الذى قتلها قتلا ولم يقدم لأهلها بديلا. حتى المسيحية لم يحسنوا نقلها إليهم. فمازال أولئك الناس يعبدون الشمس ويحسبونها السيد المسيح.

والسر فى حيوية حضارتنا المصرية وانبعاثها مرة بعد الأخرى أن قواعدها سليمة وجذورها ضاربة فى تربة مصر إلى عمق بعيد، وأنها نمت واستكملت كيانها على مهل. فنحن نقول إن بيننا وبين عصر مينا منشىء الدولة المصرية الأولى نحو عشرة آلاف سنة. ولكننا لابد أن نحسب قبل ذلك عشرة آلاف سنة أخرى وربما أكثر. فإن المصرى الذى استقر فى وادى النيل عندما كان الوادى بركا ومستنقعات كان عليه أن يحل كل مشاكل الاستقرار واحدة فواحدة. فبعد اكتشافه النار وانتفاعه بها ثم صناعة آنية الفخار والنسيج والزراعة – وتلك هى الأسس الأولى لحضارة أى جماعة بشرية – كان على المصرى أن يجفف الأرض ويقيم الجسور حول مساحات من الأرض حتى لا تغمر عليها المياه، ويحارب الطواحيح وأفراس النهر وحيتان الماء ووحوش البر وطبقات السباع من بنات آوى إلى الأسود والنمور. ثم يقيم المبانى ويصنع أثاث البيت وما إلى ذلك. وكل هذه صناعات وخبرات اكتسبها المصرى واختزنها فى ذهنه على مر القرون.

ومعنى ذلك أن المصرى تعلم كثيرا جدا فى طريقه الطويل، وفى أثناء سيره الطويل علم نفسه قواعد الأخلاق، وعرف الفضيلة والرذيلة، وبنى أسرته على قواعد أخلاقية. وهذه الأسرة أصبحت أساس حياته. وقواعد الحياة الأسرية السليمة أزكت فى كيانه روح الفضيلة ومحبة الخير، واضطرته ظروف الوادى إلى التعاون مع جاراته من الأسر، وتطورت فكرة الأديان والآلهة فى نفسه، فتطورت الأسرة المصرية تطورا سليما فى ظل الدين والفضائل.

تلك هى الجذور العميقة التى قامت عليها حضارة المصرى. وكل ما تلا ذلك من خطوات واسعة وصلت به إلى إقامة الدولة القوية العادلة والديانة المعقولة، ثم إنشاء المدن والنظم والقانون وبقية ما نعرف من وجوه حضارة مصر، كلها بناء على ذلك الأساس السليم.

ومادام الأساس سليما، ومادامت الجذور ضاربة فى العمق، فإن التربة كلها أصبحت تربة حضارية قادرة على إطلاع الحضارات، مثلها فى ذلك مثل أرض الأعشاب تحرثها فى الشتاء فإذا هى أرض فراخ أو رياش، وما يكاد الربيع يهل حتى تخرج الأرض زرعها وزهرها، من أين أتت؟ من التربة، إنها تربة حية، حتى فى فصل الركود تجد بذور الحياة راقدة كامنة تغيض حيوية كأنها عناصر حضارة منحجرة.

• • •

هذا هو أساس الحيوية الحضارية الكامنة فى كيان المصرى. فإذا كانت الحيويات نائمة الشتاء تعيش فى فترة النوم على ما اختزنت من الشحم أثناء فصل اليقظة، فإن حضارة المصرى تعيش فى فترات التحجر على روح الأسرة، وهى الغشاء الواقى الذى يحفظ عليها الحياة.

فى عصور الأخطار والغزوات، عندما تعصف بالحضارة المصرية والدولة عواصف الزمان وتصاريف صراع البقاء، يتقوقع المصرى داخل أسرته ويسكن، فتتحول مصر إلى ألوف بعد ألوف من الأسر، وكل مجموعة من الأسر تعيش فى قرية، والقرية تنكمش على نفسها كما ينكمش قطيع الغنم بالليل ليدفئ بعضه بعضا، وعلى هذه الصورة من الانكماش تعيش.

إذن فالقرية بعد الأسرة هى وحدة الحياة المصرية وخزان حضارتها. وتعصف عواصف الزمان كيف شاءت، وتخفى الدهور، فإذا هدأت العواصف وسكتت الرياح.. دبت الحياة فى الأسرة والقرية، وسعى الناس بعضهم إلى بعض، فلا تلبث أسرة قوية فى قرية واسعة الزمام أن تنهض وتعيد وحدة البلاد.

وتستيقظ عناصر الحضارة الكامنة فى وعى المصرى ولا وعيه. وما هو إلا قليل حتى تقوم الدولة الكبرى وتزهر الحضارة من جديد، وتواصل مصر مسيرتها الحضارية من حيث نامت ربما قبل قرون.

وليس عبثا أن المؤرخ المصرى مانيتون قسم عصور تاريخ مصر إلى أسرات، فإن الملك المصرى القديم ما هو إلا رب أسرة ينمو وينمو حتى تنضم تحت جناحه أسر مصر كلها وقراها، ويبلغ من تعظيم مصر لرب الأسرة الكبيرة أن جعلوه إلها، فإن الصاعدين من ملوك مصر القديمة كانوا رموزا للألوهية.

وآفة مصر لم يكونوا أبدا دمويين يطلبون قرابين الدماء، لأن الإله عندنا أيا كان اسمه رب أسرة، إنه الأب الحنون الذى رمزوا له بأقوى وأجمل ما رأوا: الشمس فهو اوزوريس وهو رع، وأم الأسرة هى إيزيس، وبقية الأسرة حوارس جمع حورس.

والأسر المصرية التى لا تحصى تعيش فى القرى التى تحصى، وهذه كلها تغتذى من بلازما الحضارة وهى تربة مصر، وتربة مصر من صنع النيل، نهر الحضارة والعمران.

والنيل خالد، ومن هنا فتربة مصر خالدة، ويبدو الحضارة فى تراب مصر لا تموت، لأنها تبقى حية دائما فى غشاء الأسرة. وذلك هو سر بقاء حضارة مصر وانبعاثها إلى الحياة والنهوض مرة بعد أخرى على مر العصور.

• • •

والمصرى هو ابن الأسرة، أسرته الصغيرة أولا، ثم أسرته الأكبر وهى القرية، ثم أسرته الكبرى وهى مصر. الرباط المقدس الذى يجمع أسرات القرى هى أرض مصر. الأرض هنا عنصر فى الأسرة، والمصرى يحب أرض مصر كما يحب أمه، فى سنة ١٩١٠ كان نحو خمس أرض مصر قد تسرب إلى ملكية الأجانب نتيجة لتصرفات الحكام من آل محمد على والإنجليز، ودون تدخل من أحد وربما دون وعى. فى سنة ١٩٣٠ كان الفلاحون المصريون قد استعادوا أرض مصر، اشتروها فدانا فدانا وقيراطا قيراطا. فى سنة ١٩٣٠ كانت كل الأراضى التى حازها الأجانب قد عادت إلى أيد مصرية. بعد حرب ١٩٦٧ لم يكن يؤلم المصريين واحدا واحدا شىء مثل احتلال إسرائيل لجزء من أرض مصر. ولم تقر قلوب المصريين فى مواضعها إلا بعد أن بدأوا يستعيدون أرض سيناء واطمأنوا إلى عودة الباقى. والرئيس السادات كسب نصر أكتوبر واستعاد أرض سيناء بروح الأسرة، بصفته رب الأسرة المصرية، أحس أنه لابد أن يستعيد ما ضاع من أرض الأسرة، وسنحدث عن ذلك بتفصيل أكثر فيما بعد.

فى كل بلاد الدنيا تتكون الأسرة من أفرادها، فى مصر تتكون من الأفراد وأرض الأفراد. أرض مصر عضو فى الأسرة، هى الأم

وفرعون كان يحكم مصر بروح الأسرة . بدون شعور المصرى بانه يعمل مع رب أسرته وهو الفرعون . ما كان من الممكن أن تبنى الأهرامات . والأهرامات أعمال فنية كبرى تحتاج إلى الهندسى والفلكى والبناء والعامل والنجار والحداد . إنها بناء أسرة . لا يمكن أن يساق شعب كامل بالقوة على طول ثلاثين سنة كما يقال لبناء شيء لا يريده . فما بالك إذا كان هذا الشيء عملا فنيا من الطراز الأول . هنا شعب كامل يشعر أنه أسرة ينشيء شيئا هائلا جديرا بالأسرة .

ميزان الأخلاق عند المصرى القديم – والحديث أيضا – واضحه الأسرة . أما ترضى عنه الأسرة فهو حلق . ما تنكره الأسرة فهو غير حلق . والأسباب فى مصر تعود إلى الأسر أو إلى القرى – وهى رباط الأسر– والاثنتان سواء . يحكى السيوطى فى « حسن المحاضرة » أن تلميذا انتسب أمام شيخ يسمى الدجوى قيل أن يدرس عليه . قال إنه يسمى عبد الله بن محمد بن إبراهيم . قال الشيخ : ما هذا باسم . قال الطالب ليس لأسرتنا اسم غير هذا . قال الشيخ : من أنت ؟ هل هبطت من السماء ؟ قال التلميذ لا ، هبطت من قوص . قال الشيخ إذن فأنت القوصى وهذا هو اسم أسرتك . فى « الدرر الكامنة » لابن حجر . أن رجلا حرموه من القضاء لأن تسميته كانت الكازرونى ، قال الشيخ : لا تعرف أسرة اسمها كازرون ، الأسرة عندنا دجوة وابيار والمحلة ومحمود والبهنسا وقفط وما إليها . لا يوجد مصرى واحد يسمى القسطاطى أو القاهرى . لأن القسطاط لم تكن قرية ، فأهلها ليسوا أسرة ، ولا كانت القاهرة ولكن هناك الاسكندرانى والرشيدى والدمياطى ، وكلها كانت قرى كبيرة .

والعمل الحضارى المصرى دائما جماعى : المعابد والمسلات والتماثيل الهائلة ورسوم المقابر كلها ثمرة عمل جماعى . إنها مظاهر لعمل الأسر المجتمعة . كيف نتصور أن يتم عمل بديع مثل رسوم مقبرة توت عنخ آمون أو نفرتارى إلا على يد جماعة من الناس تعمل فى تعاون وحب . وانظر اليوم إلى العمال يبنون عمارة تجدهم يعملون كأنهم خلية نحل ، وخلية النحل أسرة .

لهذا لا تضيع حضارة مصر أبدا . إن الفنون والصناعات والعلوم تظل راقدة فى قوقعة الأسرة . هذا سر بعث مصر من جديد وانطلاقها إلى الأمام كلما أتيحت لها الظروف . لهذا عبر نوبنى عن حضارة مصر بأنها حضارة منحجرة ، يقصد حضارة مصر القديمة التى حبت أنوارها فى عصور طويلة ثم توهجت من جديد . كل الماضى الحضارى ينبعث فجأة دون أن يضيع منه شيء . وأحمس بعد طرد الهكسوس من مصر تسلم تراث مصر الحضارى من يد أمنمحعت الرابع مع أن الفارق الزمنى بينهما نحو خمسة قرون .

ومن باب الأسرة يدخل الدين حياة المصرى ، يدخلها ميزانا للقيم والفضائل . هذه القيم والفضائل نفسها من صنع الأسرة أو أن الأسرة قبلتها ، وما تقبله الأسرة المصرية فهو حلق ، وما لا تقبله فهو غير حلق ولا يمكن أن يدوم .

لهذا لا يفسر شعب مصر قط لأن الخلية المصرية وهى الأسرة لا تفسر . إنها ترفض ما يناقض طبعها ، وهذه هى ظاهرة الرفض التى يتميز بها المجتمع المصرى . عندما دخل الفرنسيون مصر انتشرت فيها مفاسد الخمر والبغاء . البغاء جاء من جوارى المماليك الذين قتلوا أو فروا فخرجت جواريهم للطريق بحثا عن القوت . فلفقهن جنود الفرنسيين لأنهم كما يقول الجبرتى « يحبون مطلق الأنثى » أى تعجبهم أى أنثى . فزع الجبرتى لرؤية جوارى المماليك يحاصرن جنود الفرنسيين ويشربن معهم الخمر فى بركة الأزبكية ، وخاف أن تفسد نساء مصر . قاطع المصريون الأزبكية وما حولها . كانت تلك عملية محاصرة للفساد . كذلك ترفض المصريون للفرنسيين السكارى وقذفوهم بالطوب . وغار الناس على عبد من عبيد المماليك القدامى سكران فقتلوه .

بعد قليل اختفى الفساد . رفضته الأسر المصرية فمات .

إنى يوما هذا نحن لا نتشدد مع شارب الخمر لأننا نعرف أنه شاذ أو مسكين أو مريض ، ونحن لا نخشى الخمر وهى فى متناول كل الناس ، ولكننا نعرف أن خاصية الرفض تستفظ الخمر وشاربها .

كل الأمم كبيرة أو صغيرة يستشرى فيها الفساد فى فترات من تاريخها إلا مصر . حتى فى أسوأ أيام المماليك عندما تحول السلطان المملوكى إلى لص ، وفسد المجتمع المملوكى ، ظل شعب مصر سليما من الفساد . تقوقع على نفسه وحمى نفسه من فساد المماليك . وباد المماليك وبقى شعب مصر . أتانى مرة شاب يشكو من شيوع ظاهرة المراقصة عند بعض قطاعات أهل المدن ، وقال إنهم سيفسدون أخلاق المصريين .

قلت له : هون عليك مادامت الأسرة المصرية ترفض الرقص فسيلاشى الرقص . وها هو ذا اليوم يتلاشى .

• • •

سواء فى عصور مصر القديمة عندما كان الناس وثنيين ، أو فى مصر المسيحية عندما اعتنق معظم المصريين الديانة المسيحية أى القبطية . أو فى العصور الإسلامية عندما أصبحت غالبية المصريين مسلمين ، فإن الميزان الخلقى فى مصر لم يتغير . إنه دائما ميزان فضائل . لهذا نجد المصرى دائما متدينا . لأن الدين جماع الفضائل .

والمصرى فى تدينه يميل إلى الأبسط والأوضح . خلال عصور مصر القبطية تمسك المصريون بعقيدة الفاسيوس وحاربوا الأريوسية لأن الفاسيوس كان رجلا مؤمنا بسيطا صادقا . مصر كلها وقفت مع عقيدة الفاسيوس أمام بقية دولة الروم . عندما طردوا كنيسة مصر فى مجمع افيسوس ثم خلقيدونية تمسكنا بعقيدتنا المصرية . عندما خلف البطرك يوتيخيوس البطريك ديوسقوروس قال أسقف القسطنطينية : فرعون خلف فرعونا

وعندما طرق العرب أبواب مصر كان زعيم المصريين وهو المقوقس ، هو الذى تفاهم مع العرب وحالفهم رغم تهديدات الأسقف قيرس الذى كان يمثل كنيسة القسطنطينية . قليلون ما يعرفون أن المقوقس رجل مصرى من نواحى دمياط . وأخوه هو الأسقف بنيامين الذى أسماه العرب أبامينا . وللمقوقس بنت هى أرمانوسة التى وقعت فى أسر المسلمين فردها عمرو بن العاص إلى أبيها معززة .

المقوقس فى هذه الحالة هو رب الأسرة ، ورب الأسرة صالح العرب فصالحهم المصريون جميعا

• • •

فى العصر القبطى كان كل المصريين على المذهب المونوفيزى الذى سمى باليعقوبى ، كل المصريين هنا كانوا خلف رئيس الأسرة المصرية وهو بطرك الكرازة المرقسية ، ومرقس بعد أن اختلف مع بولس لجأ إلى مصر وكتب فيها إنجيله وأنشأ الكرازة المرقسية ، والكرازة هى الكنيسة لأنها تحريف للفظ اكليسيا ، وبدلا من أن يقولوا الكلازة قالوا الكرازة .

مصر الإسلامية كانت كلها على مذهب السنة ، لأنه مذهب رب الأسرة الإسلامية وهو الخليفة السنى ، حكم الفاطميون مصر حوالى ثلاثة قرون (٣٦٢-٥٥٥ هـ / ٩٧٢- ١١٦٠ م) وخرجوا منها دون أن يخلقوا شيعيا واحدا ، لأن السنة هى مذهب رب الأسرة الإسلامية ومنها الأسرة المصرية . وقارن اختلاف المذاهب وتعاديها فى كل بلد إسلامى آخر .

هنا أيضا حكمتنا روح الأسرة . كما يكون رب الأسرة يكون أفرادها ، ورب الأسرة ليس سيدها ولكن رئيسها بالتراضى . هنا نضع يدنا على سر وحدة مصر واستمرار حضارتها ونشابه معالم هذه الحضارة على مر العصور .

هذا سر من أسرار قوة مصر الكبرى عرفناه بعد أن كنا نسياء ، وما أكثر ما نسينا من خلائق طبيعة المصرى وشخصيته

□